الصرح الممرد

شحته سليم

من بين كل العيون ، تلاقت عينانا ، مرة ، ومرة ، ومرة ، كلانا كان مشغولا بوداع الأصدقاء ، لكن – في نفس الوقت – كان يتحين الفرصة لوداع الآخر .

بجرأتها وابتسامتها الساحرة ، قطعت الحيرة المسيطرة علينا ، وبخطوات ملك اتجهت نحوي ، وبلهجة كأنها تغني مدت يدها بالسلام :

أشوف وشك بخير .

لم تكن لحظة وداع ، وإنما كانت كأنها تمد يدها من خلال الموج لغريق ، يبحث عن طوق النجاة في بحر لجي ، طوال سنوات أربع ، يبحث عن فرصة للحديث ؛ حتى كاد الصمت يقتله ، يغالب الخجل والموت كل يوم ، يمر عليه الليل كألف سنة ، يعاني سكرات الفراق مع كل رحيل ، وعندما يكون الفراق أخيرا ، فهو الموت لا محالة كامل السكرات .

وبصوت عال ، خال من كل مشاعر الخوف والخجل ، صمَّمتُ على ألا وداع الآن ، وعندما اعتذرَتْ بأن صديقاتها معها ، ولن تستطيع أن تتركهم ، كان الحل موجودا ، نسيت صمتي وعجزي وهواني كل هذه السنوات ، وتعملقت في لحظات ، عرضتُ عليها بأن تودعهم وننصرف ، أو تستأذن منهم بضع دقائق وتعود إليهم ثانية إن أرادت ، حاولت الاعتذار وبعد إصرار مني قبلتْ .

بالنسبة لي كان كل شيء ممكنا إلا أن أتركها في هذه اللحظة ، أو أفرط في اللحظة بدونها ، بل أنا الذي من الممكن أن أترك الدنيا ، كنوز الدنيا جميعها من أجلها ، ومن أجلها فقط ، كان التمسك بها ولو بضع دقائق أخرى يعني بالنسبة لي التمسك بالحياة نفسها كي أنطق الشهادتين قبل الرحيل .

بلا استئذان سرنا معا ، وكأننا لا نرى الدنيا ، أو كأن الدنيا ليست فيها غيرنا ، لم نأبه لنظرات الغير ، أصدقائي وصديقاتها ، كان صوتها نغما ، والحديث معها غناء ، في ظل شجرة جلسنا ، تحدثنا ، كان الحديث أشبه بالتعارف ، وعندما يكون التعارف في آخر العمر فما جدواه ؟! أشبه بتلقين الموتى من فوق القبور ، لا قيمة له .

قالت بأنها من (الفردوس) ، ضحكت وقلت بأنني أعرف ذلك ، وعندما أظهرت دهشتها ، كيف عرفت ، قلت بأنها تشبه الحور العين .. ضحكت كأنها لم تضحك من قبل ، قلت في الحقيقة أنني أول مرة أعرف أنها من سكان (الفردوس) ، وهي لا تزال تضحك قالت بأنها منذ إحدى وعشرين سنة من هناك . وحدثتني عن أسرتها ؛ وأمها التي تتحمل المسئولية بعد وفاة والدها منذ ثلاثة أعوام في حادث سيارة ، وأنها أخت لثلاثة أولاد ، وبنت ، وأنها أكبرهم جميعا .

قالت بأن أخاها التالي لها في ترتيب الإخوة (محمد) تحمل المسئولية مبكرا ، واكتفى بالتعليم المتوسط لمساعدة أمها في تربيتهم . وقالت بأنه يعمل سائق سيارة ، وأنه ليس أخا فقط وإنما هو أقرب الأصدقاء إليها ، فتحكي له عن كل شيء ، أدق

التفاصيل في حياتها يعرفها ، وفي أوقات كثيرة يطول معه الحديث حتى بدايات الصباح ، هكذا يكون الحديث مع الأخ عندما يكون أخا وصديقا وفيا ، تفضفض معه أكثر من أختها (إيمان) .

ثم (إيمان) وصفتها بأنها طويلة وبيضاء ، وقالت بالرغم من أنها في الفرقة الثانية بالجامعة إلا أن خطابها كثيرون ، ومختلفون ، وهي لا توافق على أحدهم في انتظار شخص بصفات الفارس الذي يحملها خلفه على الحصان الأبيض كما في الحكايات .

ثم (سعيد) ، قالت بأنه أكثرهم ذكاء واجتهادا ، وأكثرهم حرصا على الوقت ، فهو بين شيئين أو ثلاثة أشياء ؛ الدراسة والمذاكرة والصلاة ، حتى إن أمها نفسها لا تكلفه بشيء ، ربما لرد الجميل ، فسعيد لا يذهب للدروس الخصوصية مثل أصدقائه في الثانوية العامة ، وأكدت أن والدتهم وأخاها محمدا ألحوا عليه كثيرا وطويلا ليكون مثل أصدقائه ، لكن كان هو أكثر إحساسا بظروفهم ، وتوفيرا للمصاريف ؛ فرفض تماما فكرة الدروس ، وبالرغم من هذا هو أول زملائه كل عام .

وأخيرا (أمين) ، قالت بأنه لا يزال تلميذا في الصف الخامس الابتدائي ، بطوط صغير ، لكن - ربما - لأنه أصغر إخوته ، ولوفاة أبيه وهو في سن صغيرة ، مدلل من الجميع ، صعب المراس . مطالبه لا تنتهي ، بكاؤه لا يتوقف ، دائم الشكوى ، يريد السيطرة على متعلقاتنا ، وعندما يفشل في ذلك أو يفشل في التعامل

معها يتلفها . معظم أشيائي متلفة ، مكسرة أو معطلة ، حتى مرآتي وأدوات التجميل الخاصة بي لم تسلم منه .

توقفت ، أو توقف الكلام ، قلت : لكنكِ لم تخبريني عن نفسك ؟

فاجأها السؤال . أنا .. أنا مثلما تراني ، بصفاتي وأصدقائي ، أودع سنوات الدراسة بالجامعة ، لي آمالي وطموحاتي ، لكن ظروفي تجعلها صعبة إن لم تكن مستحيلة ، فأستسلم للحياة وأنتظر ماذا ستفعل بي .

كان في صوتها نغمة حزن ، حتى إنني تأثرت من أجلها ، ولم أجد من الكلمات ما يطيب خاطرها .. فسكتُ .

قدمت لها كل الهدايا التي جمعتها في السنوات الأربع من أجلها دفعة واحدة ، تعجبت : كل هذا من أجلي ؟

ضحكتُ ، في أثناء الكلام تلاقت عينانا كثيرا ، لكن للحظة قصيرة ، وفي إحدى المرات ، ثبت عيني في عينيها أكثر ، أحسست بأنني أغرق في بئر بلا قرار ، تخيلت أني أبحث عن كنز قارون أو خاتم سليمان ، كنت في حاجة للقدرة لأغير الكون ، من عينيها أستمد القدرة لبناء سبأ جديدة .

أنت تستحقين الكثير ، لو كنتُ سليمان لأهديتك الصرح الممرد .

شكرتني بابتسامتها ، وقبلتْ الهدية . ودعتها على أن نلتقي ثانية بعد يومين ، وعندما رجعت تذكرت أنني نسيت القلب والروح معها .